الشيخ مبارك الميلي
ومواجهة المشروع الفرنسي لكتابة تاريخ الجزائر

د. علاوة عمارة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة.

نجحت المنظومة الفكرية الغربية على امتداد قرون متتالية من بلورة قواعد فكر منهجية مكنت الإنسان من إحداث ثورة معرفية ومنهجية بفضل العقلانية العلمية وروح النقد وتطور تقنيات التعامل المعلوماتي. ولم يكن ممكنا للإنسان الأوروبي من الانطلاق الفكري والحضاري بدون بلورة فكرة واضحة عن مختلف المراحل التاريخية التي مر بها الفكر البشري وهو ما أدى في النهاية إلى رسم الخطوط العريضة للتوجهات الكبرى في الكتابات التاريخية الحديثة خصوصا التيار الوضعي ومدرسة الحوليات.

ولم يكن بمقدور التوجه الوضعي التخلص من "ضغط" الوعي القومي لصناعة تاريخ شامل سردي في معظمه وموجه لخدمة أغراض سياسية وتربوية. فإذا كان ميشلي (Michelet) قد برع في رسم تاريخ فرنسا الضارب بجذوره في مرحلة ما قبل كلوفيس (Clovis) فإن التوجه العام للإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية هو صناعة تاريخ لمستعمراتها لربطها بتاريخ الإمبراطورية الأم وهذا في محاولة لإعطاء دفع للمشروع الثقافي الهادف إلى تدمير النسيج الاجتماعي لسكان المناطق المحتلة وتوجيهها نحو "نور الحضارة الغربية". وكانت الجزائر أهم المناطق التي شكلت ميدانا خصبا لهذه السياسات الاستعمارية.

نحو العودة إلى روما

تميزت الكتابات التاريخية الفرنسية في القرن التاسع عشر بسيادة عنصر الهواية والخدمة العسكرية في محاولة لاستكشاف بنية المجتمعات القبلية في الجزائر، من خلال جمع روايات شفوية وتقارير رسمية ومذكرات شخصية، ومن بين من اشتهروا بذلك نجد شارل فيروا (Charles Féraud) وأرنست مارسيي (Ernest Mercier) وجورج فوازين (Georges Voisin) المعروف باسماعيل إربان (Ismail Urbain) وغيرهم كثير. بينما عرف القرن العشرين ظهور مجموعة من الباحثين الجامعيين المتخذين من جامعة الجزائر (1909) ومعهد الدراسات الشرقية (1933) إطارا لتنسيق جهود البحث والاستكشاف. وقد نشطت حركة النشر خصوصا من خلال تأسيس

مجلات خاصة بنشر الدراسات والتراث منها وهذا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي، خصوصا المجلة الإفريقية (*Revue africaine*) والمجموعة الأثرية لعمالة قسنطينة *(Recueil des notices et mémoire de la société archéologique de Constantine)*. (لمزيد من التفاصيل، راجع سعيدوني، ن، 2000: 10- 11.)

وتسمح لنا قراءة الكتابات الفرنسية حول تاريخ المغرب برسم الخطوط الرئيسة للنظرة الاستعمارية لتفسير مختلف الحقب التاريخية لبلاد المغرب والتي نلخصها فيما يلي: (لمزيد من التفاصيل حول الكتابات الغربية، أنظر عمارة ع، 2004: 31- 75. وكذلك مقالنا الصادر باللغة الفرنسية: Amara, A., 2003: 2-26)

لقد قامت الحضارة القرطاجية بتخصيب الأرضية الليبية البربرية، وقام الوجود الروماني بإدماج بلاد المغرب في فلك الحضارة الغربية قبل أن تفل وتظلم مع الفتح العربي وتربط بالدورة التاريخية الشرقية. والاحتلال العربي تم على مرحلتين (الفتح العربي في القرن السابع والهجرة الهلالية في القرن الحادي عشر) وهو ما أدى في النهاية إلى طرد السكان الأصليين البربر، الذين لا يمكنهم استرجاع أراضيهم إلا مع الوجود الفرنسي وبالتالي العودة إلى فلك الحضارة الغربية المتنورة.

لقد ركزت الكتابات الفرنسية منذ البداية على إبراز بلاد المغرب في ظل إمبراطورية روما سواء كتابة من خلال الإشادة بالأباطرة وعلاقاتهم بالبربر، "بتقديمهم كأحفاد للغاليين" أو الإسراع في ترميم أهم المدن الأثرية الجزائرية من خلال تدمير الطبقات الأثرية الخاصة بالفترتين البيزنطية والإسلامية والاكتفاء بالطبقة السفلى منها الممثلة للسيطرة الرومانية.

لقد ركزت الكتابات الفرنسية على الروايات العربية الأسطورية لتصوير القادة الفاتحين كسفاحين وناهبين لخيرات المجتمعات القبلية البربرية. كما ركزت هذه الكتابات على الهجرة الهلالية والتهويل من دورها في تخريب بلاد المغرب، كما صورت لنا ذلك البربري المستقر في مواجهة الرحل العرب، وأول من قام بنشر هذه الأفكار العنصرية نجد على الخصوص أرنست مرسيي (Ernest Mercier) في كتابه الأول الصادر عام 1875 "تاريخ استقرار العرب بإفريقيا الساحلية من خلال وثائق المؤلفين العرب وعلى الخصوص تاريخ البربر لابن خلدون" (Mercier E., 1875: 406)، أما فيما يخص الكتاب الثاني فقد طبع سنة 1888 بعنوان " تاريخ إفريقيا الساحلية من الأزمنة البعيدة إلى الفتح الفرنسي. (Mercier E., 1888:vol 2: 477) هذه النظرة المعادية للعرب تجلت في جل الدراسات الفرنسية حول تاريخ المغرب الوسيط التي كتبت

في بداية القرن العشرين. ففي كتابه " قلعة بني حماد، عاصمة بربرية لإفريقيا الشمالية في القرن الحادي عشر" تطرق الجنرال دوبايلي (Le Général de Beylié) إلى الهجرة الهلالية وحملها مسؤولية أفول حضارة القلعة الحمادية(Beylié E., 1909: 9.)

بعد كتابات الجيل الأول من المستشرقين الاستعماريين حول ماضي المغرب ظهرت مجموعة أخرى وسعت من مجالات البحث التاريخي ومصادره من خلال استغلال المصادر النثرية والوصفية والفقهية وهو ما ساهم في محاولة إعطاء صورة عامة عن تاريخ المغرب الوسيط وتوظيفه في قالب إيديولوجي موال للاستعمار, ولهذا ظهرت مجموعة من الدراسات المحملة للعرب مسؤولية التخلف الذي تعيشه "بلاد البربر" (La Berbérie) والداعية إلى إعادة النظر في " الحقوق المسلوبة" للبربر بسبب " الهمجية المشرقية". فقد قام جورج مارسي (Georges Marçais) المنتمي لأشهر عائلة فرنسية مهتمة بكتابة تاريخ المغرب والأستاذ السابق بمدرسة قسنطينة، بتحضير رسالة دكتوراه حول "العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر" (هذه الأطروحة نشرت في سنة 1913. أنظر Marçais G., 1913 . 2 vol: 769)وهي الدراسة التي حاولت رسم خريطة للقبائل الهلالية التي استقرت ببلاد المغرب ابتداء من منتصف القرن الحادي عشر. بالرغم من الطابع الوصفي لهذه الدراسة فان جورج مارسي ما لبث أن أصدر أحكاما قاسية على القبائل الهلالية واتهم إياها بتخريب حضارة المغرب، وهي الأحكام التي أعلنها صراحة في العديد من كتاباته وعلى الخصوص " بلاد البربر الإسلامي والشرق في العصر الوسيط ". ورتب مارسي في هذا الكتاب الأخير ما أسماه نتائج الحملة الهلالية وهي إشاعة الفوضى بإفريقية، وتعريب المنطقة، وإدخال البداوة إليها، واغتصاب أراضي بربر زناتة وهذا ما أدى ببلاد المغرب من الدخول في طور جديد تميز بالانحطاط(. Marçais G., 1927: 193-228)

مع اميل فليكس غوتيي (Emile Félix Gautier) ظهرت نوع من الكتابات العنصرية من خلال اتهام العرب بتحطيم حضارة المغرب الموروثة عن الرومان والبيزنطيين وتشبيه الحركة الهلالية بهمجية الشعوب المتبربرة المحطمة لحضارة روما. ففي كتابه " أسلمة افريقيا الشمالية، القرون المظلمة للمغرب" كرر عدد من أقوال ابن خلدون حول " همجية العرب" ووظفها في قالب إيديولوجي استعماري. (Gautier E.- F., 1927: 389.):

وقد أدى ظهور ورواج الكتابات الفرنسية حول تاريخ بلاد المغرب بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة إلى ظهور مجموعة من الكتابات العربية تهدف إلى التصدي للمشروع

الثقافي الفرنسي وإلى محاولة التأصيل لفكرة "الدولة- الأمة"، انطلاقا من الماضي البعيد، وقد جسد هذا التوجه في الجزائر كل من الشيخ مبارك الميلي، وأحمد توفيق المدني والشيخ عبد الرحمان الجيلالي في فترة متأخرة. وسنحاول من خلال أول كتاب برز في ذلك وهو "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، معرفة آليات الكتابة التاريخية الجزائرية وكيفية تصويرها وتقسيمها لتاريخ الجزائر في مراحله المختلفة.

تاريخ الجزائر في القديم والحديث: الفكرة والتجسيد

لقد هيمن الاتجاه الوضعي الاستعماري على الحقل المعرفي الخاص بتاريخ بلاد المغرب بحقبها المختلفة، وكرد فعل ظهرت مجموعة من الكتابات الظرفية ساهمت إلى حد كبير في الحد من الانهيار الفكري والحفاظ على استقلالية ماضي بلاد المغرب عن الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية. لقد حاولت هذه الكتابات مسايرة الوعي الوطني الذي تبلور بصورة جلية في الربع الأول من القرن العشرين، وأزداد الأمر توترا باقتراب احتفال السلطات الاستعمارية بمئوية احتلال مدينة الجزائر وما واكبها من ظهور كتابات ممهدة للحدث خصوصا كتاب "أسلمة إفريقيا الشمالية، القرون المظلمة للمغرب" لغوتييه وكتاب "بلاد البربر الإسلامي والمشرق في العصر الوسيط" لجورج مارسي سنة 1927.(Marçais G., 1927.)

لقد حاول بعض أقطاب الجيل الجزائري الذي عاش في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين التعريف بماضي المنطقة من خلال نشر نصوص تاريخية تراثية لمؤلفين جزائريين عاشوا في الفترتين الوسيطة والعثمانية. ويعتبر محمد بن أبي شنب (ت 1929) وأبي القاسم الحفناوي (ت 1942) من أهم من مثل هذا الاتجاه. (تم على الخصوص تحقيق ونشر نصوص عنوان الدراية للغبريني، والبستان لابن مريم، ونزهة الأنظار للوتيلاني. أنظر، سعيدوني، ن، 2000: 13- 14.) خصوصا وأن هذا الأخير قد نشر كتابا يترجم للعديد من العلماء الجزائريين منذ الفترة الوسيطة خصوصا، والموسوم بـ "تعريف الخلف برجال السلف".

أما الجيل الثاني، والذي يعتبر الشيخ مبارك الميلي (1897- 1945) (حول حياة مبارك الميلي، أنظر مثلا:.Cheurfi A., 2001: 263-264) أحد أهم رواده فقد اتخذ منحنى آخر تمثل في محاولة كتابة تاريخ وطني تتمازج فيه الأحداث التاريخية مع الوطنية المكافحة. وقد سار على منوال الشيخ عثمان الكعاك الذي رسم الخطوط الأولى للتاريخ الوطني الجزائري في كتابه الموسوم بـ "موجز التاريخ العام للجزائر من

العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي" الصادر سنة 1925(تونس، مكتبة العرب، 1925).

لقد ألف مبارك الميلي كتابه في التاريخ في زمن التحضيرات لاحتفالات المائة سنة لاحتلال الجزائر في وسط بدوي عندما أقام بالأغواط لأسباب اختلف في تفسيرها، والتي تراوحت بين الهدف الدعوي من خلال توزيع الشيخ ابن باديس لتلامذته على مختلف مناطق التراب الوطني، وبين الدعوة التي يكون قد تلقاها الميلي من طرف عبد العزيز بن الهاشمي، شيخ الطريقة القادرية، الذي اقترح على أعيان مدينة الأغواط دعوة الميلي للاستفادة من دروسه.(صاري،أ .2004: 36- 37.)

وخلال فترة استقراره بمدينة الأغواط (1927- 1933)، المتميزة خصوصا بنشاطه التعليمي، أخرج مبارك الميلي كتابا تاريخيا مرجعيا للتيار الإصلاحي بالجزائر: "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، الذي بدل فيه جهدا كبيرا (صاري أ.، 2004: 38- 39). وبمساعدة بعض المترجمين كما يذكر في مقدمة الكتاب. ويدل التوزيع الجغرافي لمترجمي الميلي: عيسى الزهار في الأغواط، محمد التهامي بميلة وعمر دهينة، المعلم والرسام بالمكاتب الفرنسية(الميلي،م.1976: 5)، والشاب أحمد توفيق المدني، على أن بدايات تحضير الكتاب قد سبقت إقامة الميلي بالأغواط. فقد صدر الجزء الأول منه بقسنطينة سنة 1928، فيما صدر الجزء الثاني سنة 1932، وهذا كمحاولة لكتابة تاريخ وطني مغاير للصورة التي أعطتها له الكتابة الفرنسية.

وقد اعترف الميلي بالمشاق التي لازمته طوال فترة إعداد الكتاب: معاناة منهجية للافتقاد للآليات المنهجية لكتابة تاريخ عصري، وغموض وقلة المادة الخاصة بالتاريخ الجزائري، وعدم التمكن من القراءة بالفرنسية، كل هذه العراقيل لم تثبط من عزيمة صاحب "تاريخ الجزائر"، الذي صحح الأعلام وجمع المواد وأوضح الأغراض التاريخية وقرب الأسلوب من "النهج العصري".(الميلي،م.1976: 10.)

تاريخ الجزائر بين القديم والحديث

يتضح من خلال صفحة إهداء "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" أن المؤلف أراد تأليف كتاب مرجعي أهداه إلى الشعب الجزائري، في زمن سيادة النموذج الديمقراطي كما يقول المؤلف، رافضا فكرة الدولة الملكية التي عرفتها الحقب القديمة (الميلي، م. 1976: 3.). فهو "بلاغ للشبيبة عن وطنيتهم"، (الميلي،م.1976: 5). وهو دليل عن المزج بين "الفن والعلم والتاريخ والوطن"(الميلي،م.1976: 5.)

لقد قوبل كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" بفخر واعتزاز من قبل رواد الحركة الإصلاحية، خصوصا ابن باديس الذي تمنى تسميته بـ"حياة الجزائر"، والذي اعتبره بمثابة "أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية، بعدما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك".(ابن باديس، رسالة إلى الميلي بمناسبة صدور الكتاب، وقد نشرت في بداية كتاب تاريخ الجزائر: 7- 8.)

على شاكلة المقدمات الخلدونية، استهل الميلي كتابه بالحديث عن علم التاريخ وارتباطه بالمعارف والعقل. وقسم التأليف بعد ذلك إلى أربع كتب مشكلة من عدة أبواب. فالكتاب الأول خصصه لتاريخ الجزائر في الفترة السابقة للإسلام، وقسمه على النحو الآتي:

تمهيد حول جغرافية واقتصاد الجزائر

الباب الأول: في ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري

الباب الثاني: في ذكر البربر

الباب الثالث: في ذكر الفنيقيين

الباب الرابع: في ذكر البربر على عهد قرطاجة وجمهورية روما

الباب الخامس: الرومان وحكومتهم في الجزائر

الباب السادس: في ذكر الوندال ومدل أمرهم

الباب السابع: في ذكر البربر

أما فيما يخص الكتاب الثاني، فقد خصصه للحديث عن الفترة الإسلامية إلى غاية وصول القبائل الهلالية إلى إفريقية:

الباب الأول: في غزو العرب لافريقية وتأسيس إمارتهم فيها

الباب الثاني: في الدولة الرستمية

الباب الثالث: في الدولة الإدريسية

الباب الرابع: في الدولة الأغلبية

الباب الخامس: في الدولة العبيدية

الباب السادس: في نزوح الهلاليين إلى المغرب

وجاء الكتاب الثالث ليكمل ما تبقى من المرحلة السابقة للفترة العثمانية بالجزائر والذي عنونه بالعصر البربري، وجاءت الأبواب على هذا النحو:

الباب الأول: في القبائل البربرية الجزائرية

الباب الثاني: في الدولة الحمادية

الباب الثالث: في دولة المرابطين

الباب الرابع: في الدولة الموحدية المومنية

الباب الخامس: في أحوال العرب لعهد الحفصيين والزيانيين والمرينين

الباب السادس: في الدولة الحفصية

الباب السابع: في دولة بني مرين

الباب الثامن: في دولة بني زيان

والكتاب الرابع في مصير أمر الجزائر إلى الأجانب وأحوالها في هذا الدور، فلم ينجزه صاحبه. وهنا نجده يصنف الأتراك في خانة الأجانب "المسيطرين".

إن تاريخ الجزائر بهذا البناء والتقسيم هو نسخة طبق الأصل للدراستين الفرنسيتين الصادرتين عام 1927: بلاد البربر لمارسي وأسلمة إفريقيا الشمالية لغوتييه. وبهذا فإن هذه الرؤية الزمنية لا تمت بصلة إلى أصالة اجتهادية، وإنما استمرار للمنظور الاستعماري الذي قسمه على أساس سياسي، وعرقي، وسلالاتي. إننا بعيدين من هذه الزاوية عن فكرة التاريخ المتحرر من الاستعمار (L'histoire décolonisée) . بل إن الميلي وعلى شاكلة مارسي وغوتييه ومن بعدهم الهادي روجي إدريس (Hady Roger Idris) (*Idris, H.* 1962: I. 357 *R.*, 1968: 353-371 Id.,1968: 390-396.) جعل من الهجرة الهلالية حدا زمنيا فاصلا بين حقبتين زمنيتين، على اعتبار أنها أحدث تغييرات عميقة في البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب.

قراءة الميلي لأحداث تاريخ المغرب: الهجرة الهلالية نموذجا

بالنسبة للميلي، العرب المستوطنين بالجزائر هم الهلاليون وأحلافهم من عرب المعقل، وهو بهذا يلغي الوجود العربي بالجزائر قبل هذه الفترة. ولمحاولة تحليل الظاهرة الهلالية فإن المؤلف استعان بالجدول القبلي الذي أنجزه ابن خلدون في كتابه. ومما يلاحظ على كلام الميلي هو محاولته الدفاع عن القضية الهلالية بالرغم من الحديث عن فسادهم في الأرض ورده على ابن خلدون بأن هذا الأخير مبالغ في أحكامه. لكن ما يلفت النظر هو دخول بعض الأفكار التي روجتها الكتابة الفرنسية إلى كتاب الميلي عند محاولته تفسير نتائج الحدث: "نشأ عن ذلك فوضى في الوطن، فانقطعت الصلة بين المدن باخافة السبل، وفر الفلاحون من الضواحي، فوقفت التجارة والفلاحة، وانحصرت العمارة والأمن في السواحل شمال قسنطينة حيث لا شر بين العرب والبربر".(الميلي، م.1976: 557)

إن هذه الرؤية ما هي إلا نقل لفكرة "الكارثة الهلالية" التي روجت لها المدرسة الفرنسية الكلاسيكية. وقد لجأ الميلي أحيانا إلى الرد على الكتاب الفرنسيين المروجين للأيديولوجية الاستعمارية القائمة على أساس عنصري كما عمل مثلا مع كاريت (Carette).(الميلي، م.1976: 558).

كتاب معرفي نضالي: الوطن والعربية

لا يمكن الإحاطة بفكرة "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" بدون الرجوع إلى الظروف التي أنجز خلالها هذا الكتاب وإلى الغاية من كتابته، بل وإلى نظرة الميلي لعلم التاريخ. فقد تطرق المؤلف في مقدماته إلى نظرته إلى التاريخ الذي اعتبره "مرآة الغابر ومرقاة الحاضر، فهو دليل وجود الأمم وديوان عزها ومبعث شعورها وسبيل اتحادها وسلم رقيها" (الميلي، م.1976: 11). والتاريخ عند صاحب "تاريخ الجزائر" الوسيلة الممكنة لإدراك الماضي الشريف بعيدا عن عبث المدلسين. وقد انقطعت صلة المتعلم الجزائري بتاريخه، ولحق بتواريخ الأمم الأجنبية بفعل السياسة الاستعمارية. وهذه القضية أدركها الميلي وتأثر كثيرا بتصوير الكتابة التاريخية الدخيلة للإنسان الجزائري بوضعه في منزلة "همجية" إنسان ما قبل التاريخ. كما انتقد الميلي إقصاء التاريخ من التعليم المسجدي والاكتفاء بالعلوم اللسانية والدينية، داعيا إلى مطالعة كتب التاريخ بتشغيل العقل لتمييز الخطأ من الصواب.(الميلي، م.1976: 13- 14)

ويعترف الميلي بجهله بكتب التاريخ خلال تكوينه المسجدي إلى غاية بداية مطالعته لكتب تراجم الفقهاء والنحاة لميله إلى معرفة رجال هذين العلمين ليبدأ في الاهتمام به في مرحلة يقر فيها بعدم قدرته على مواكبة علوم العصر لتوسعها ولعدم قدرة الكتابة التاريخية العربية الوسيطة على تغطيتها. ولم يفكر في وضع كتاب للتاريخ الوطني "العزيز" إلا بطلب من أحد أصدقائه ثم بطلب مجموعة أخرى من الأصدقاء، بعدما طالع الكثير من كتب التاريخ العام. ولم يدع الميلي امتلاكه لمنهج المؤرخ: "فلم يحملني على الخوض في هذا الموضوع الهام غير الشعور بواجب خدمة الوطن وقراء العربية طالبا من أهل المقدرة والدراية أن لا يجهلوا كبر ما عليهم من المسؤولية أمام الوطن والعربية وأن لا يجعلوا – بتفريطهم في نشر هذا الفن- حظ الجزائر منقوصا مغبونا فمن آنس من نفسه الكفاءة ووجد من الوقت سعة فلا يبخل على بني جلدته وليبذل في سعادتهم ما في استطاعته".(الميلي، م.1976: 15- 16). لكن هذا لم يمنع الميلي من توجيه اتهامات لمعاصريه من المؤرخين عندما يتهمهم بتحريف الحقائق التاريخية بسبب تعصبهم العرقي

والوطني، وحب التفوق واستعباد الغير وجهلهم بالمصادر التاريخية الصحيحة. (الميلي، م.1976: 20- 21).

إن المتصفح لمصادر ومراجع الميلي يلاحظ استخدامه لسبعة وأربعين مصدرا وخمسة عشر مرجع باللغة العربية وعشرون مرجعا باللغة الفرنسية. وهذه القائمة تعتبر هزيلة مقارنة بالدراسات الأكاديمية التي ظهرت في فترة الثلاثينات. والمصادر العربية التي استعملها الميلي توزعت بين التاريخ الحدثي والتراجم والجغرافية والرحلات، وهي بذلك مهمة ولكنها بعيدة عن الاستعمال الواسع للكتب الفقهية والمنقبية والأرشيفية والأثرية التي استغلتها الجهات الاستعمارية.

إن محاولة كتابة تاريخ وطني جزائري له جذوره في مرحلة ما قبل التاريخ والمرحلة التاريخية القديمة اصطدمت بغياب مصادر محلية، ولهذا اكتفى الميلي بترجمة ونقل معلومات المؤلفين الفرنسيين المعتمدين على الكتابات اليونانية واللاتنية، مع محاولة مزجها بالمعطيات الخلدونية حول الفترة القديمة، الأسطورية في معظمها. ونفس الانطباع يتركه معالجة الميلي للفترة الإسلامية عندما لا يجد شعور وطني في كتابات الفترة التي اكتفت بالتأريخ للسلطان أو الفقيه أو القبيلة، وهذا راجع لغياب الوعي بالوطن الواحد، لارتباطه بالوازع القبلي والديني وقلما بالجغرافي والعرقي.

بالرغم من المجهود الكبير الذي بدله الميلي بدخوله الكتابة التاريخية من زاوية "الهواية النضالية"، فإن غياب آليات قراءة النصوص والتفكير بالبعد المنهجي التاريخي المبني على قدرة تقسيم المراحل التاريخية (Le découpage historique) جعل منه غير متحرر كما ينبغي من النظرة الفرنسية لتاريخ الجزائر، واكتفى بالإدلاء ببعض الآراء بعيدا عن روح النقد.

لقد أدى كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" الهدف الذي رسمه له صاحبه: خدمة الوطن والعربية، ليشكل في مرحلة زمنية مصيرية مرجعية هامة لمعرفة التاريخ الوطني، وهو يدخل في هذا السياق ضمن ما أسميه بالكتابة الظرفية (Ecriture de circonstance) التي تفقد قيمتها بزوال الهدف الذي رسم لها، وتبقى فقط شاهد على مرحلة تاريخية معينة.

ملاحظة: ورقة قدمت في الملتقى الوطني "الشيخ مبارك الميلي وجهوده الإصلاحية"، ميلة، 11- 12 فيفري 2007.

قائمة المصادر والمراجع

سعيدوني، ناصر الدين، 2000، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
صاري أحمد، 2004، شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، غرداية، المكتبة العربية.
علاوة عمارة، 2004، "الهجرة الهلالية وانحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، 4، ص 31- 75.
الميلي مبارك بن محمد، 1976، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ط 2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

المراجع باللغة الفرنسية

Amara Allaoua, 2003, « Retour à la problématique du déclin économique du monde musulman médiéval: Le cas du Maghreb hammadide (XI-XII[e] siècles) », *The Maghreb Review*, 22-1, p. 2-26.
Beylié Le général de, 1909, *La Kalaa des Beni-Hammad, une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XI[e] siècle*, Paris, Ernest Leroux.
Cheurfi Achour, 2001, *La classe politique algérienne de 1900 à nos jours*, Alger, Casbah Editions.
Gautier Emile Félix, 1927, *L'islamisation de l'Afrique du Nord: les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, Payot.
Idris, Hady Roger, 1962, *La Berbérie orientale sous les Zirīdes X-XII[e] siècles*, Paris, Adrien-Maisonneuve.
Idris, Hady Roger, 1968, « De la réalité de la catastrophe hilālienne », *Annales, Economie, Scoiété et civilisation*, 23, p. 390-396.
Idris, Hady Roger, 1968, « L'invasion hilalienne et ses conséquences », *Cahiers de civilisation médiévale*, 3, p. 353-371.
Marçais Georges, 1913, *Les Arabes en Berbérie du XI[e] au XIV[e] siècle*, Constantine, Paris, Ernest Leroux.
Marçais Georges, 1991, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, 1927, 2[eme] éd. Casablanca, Editions Afrique Orient.
Mercier Ernest, 1875, *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'Histoire des Berbères d'Ibn Khaldoun*, Constantine, L. Marle Librairie édition.
Mercier Ernest, 1888, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830)*, Paris, Ernest Leroux.